المحور الثامن

حوارات مع زكى نجيب محمود

obeikandl.com

هذه مجموعة حوارات مهمة عقدت مع الدكتور زكى نجيب محمود فى السنوات الأخيرة من حياته ، ونشرت بمجلات : «الثقافة» (القاهرة)، و«الدستور» (لندن)، و«المنتدى» (دبى)، و«الأنوار» (بيروت) . .

الحوارات أجراها الأستاذ الناقد : نبيل فرج

---

obeikandl.com

الحوار الأول (*)

يُعرف الدكتور زكى نجيب محمود فى بلادنا وفى أنحاء العالم العربى من خلال كتاباته المتنوعة التى يشارك بها فى حياتنا الثقافية منذ أواخر الثلاثينات . وأثناء هذه المرحلة الطويلة من الإنتاج العميق المتصل ، حاول الدكتور زكى نجيب محمود أن يشق طريقاً جديداً فى أدب المقالة ، على المستوى النظرى والتطبيقى معاً .

تنهض هذه المحاولة على تخطِّى الأساليب التقليدية التى تجعل المقالة الأدبية مطابقة فى تسلسلها المنطقى واستيفاء عناصرها لموضوع الإنشاء المدرسى . وتطرح صيغة أخرى يمكن قياسها بمعيار النقد الأدبى يستجيب فيها الكاتب للقلق العميق الذى يساوره إزاء صور الحياة وأوضاع المجتمع على الشاكلة العفوية غير المنسقة التى تخطر له .

داخل هذه الصيغة الحرة يدعو الدكتور زكى نجيب محمود الكتَّاب إلى التعبير عن سخطهم باللون الباهت الهادئ ، والفكاهة الجميلة ذات الأثر الفعَّال فى نفوس القراء . وزكى نجيب محمود يرى أن السخط هو المحرك الأول للأدباء والمفكرين لتنبيه الناس إلى أوجه النقص فى حياتهم . وكتابه «أرض الأحلام» الذى صدر ضمن سلسلة «كتب للجميع» عبارة عن خلاصات دقيقة لمجموعة من الكتب المهمة فى التراث العالمى ، تقدم صوراً خيالية للمدن الفاضلة التى تقوم على الحرية والاشتراكية ، مع نُبذ وافية عن المؤلفين الذين عاشوا جميعاً فى انجلترا فى القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر .

ومن القراء من يذكر أن الدكتور زكى نجيب محمود تعرَّض فى العقدين الماضيين لمعارضة شديدة ، على صفحات الصحافة الأدبية ، بسبب دعوته للوضعية المنطقية ، فى ضوء معايشته للثقافة ، والحياة ، والعصر .

والوضعية المنطقية التى يقترن بها اسم الدكتور زكى نجيب محمود فلسفة تحليلية نضجت

(*) نشر فى مجلة «الثقافة» - القاهرة .

على الترجيح تحت تأثير التسيب أو التميع اللفظى الذى ساد الكتابات الأدبية ، وهى تقتصر فى التحقق والتمحيص ، على الجانب الشكلى ، وعلى عنصر واحد من عناصر الشكل وهو اللغة ، التى تعد - فى أحدث الاتجاهات النقدية وأقدمها - المدخل الحقيقى للمعرفة الكاملة .

على أن اللغة ، كأداة لتوصيل الأفكار والانفعالات ، لا تؤدى هذا الهدف إلا إذا وضعت الكلمة بادئ ذى بدء فى سياقها ، لأنه ليس للكلمات معنى مطلقاً ، إلا إذا شمل الاهتمام أيضاً الدلالة الشاملة التى تنطوى عليها ، لأن الكلمات - كنشاط اجتماعى وأداة فعل - لا توجد فى فراغ.

وقد توصَّل د. زكى إلى هذا المنهج الذى يعتمد على الواقع التجريبى المحسوس ، بعد رحلة ميتافيزيقية فى «بحر الظلمات» ، كان يؤمن خلالها بالجبر الذاتى ، ولكنه تحوَّل عن هذا المذهب الأول ، ووقع العداء الكامل للميتافيزيقا لصالح الواقع العملى ، أو التجريبية العلمية ، والاحتكام الصارم إلى العقل وحده ، الذى يرى د. زكى أنه سبيلنا الصحيح للتمعن ، ودخول العصر الحضارى الجديد.

ولا جدال أن د. زكى من أكثر المفكرين المعاصرين حرصاً على تجديد الفكر العربى ، عن طريق التوفيق - وأفضِّل أن أقول المزج - بين الأصالة والمعاصرة . ولا جدال أيضاً أن إنتاجه الجاد الواضح فى الفلسفة والأدب والنقد إضافة أصيلة للثقافة العربية ، لها وزنها الملحوظ ، وقيمتها الباقية ، المناهضة لكثير من المفاهيم المستقرة الشائعة .

ونبدأ هذا الحديث مع د. زكى بتعريفه للوضعية المنطقية ، التى أثارت الزوابع من حولها، ثم نتطرق إلى مجموعة من القضايا المتصلة بها وبالفكر الفلسفى الحديث.

الوضعية المنطقية :

- **أرجو أن تعرِّف القراء بالوضعية المنطقية التى يرتبط اسمك بها فى الثقافة العربية .**

ـ ألخص الوضعية المنطقية فى كلمات قليلة فأقول إننى أفرِّق تفرقة واضحة بين مجالين من مجالات النشاط الحيوى ، وهما :

أولاً : مجال العلوم حيث يكون السلطان المطلق للعقل وحده وإذا قلت : «العلوم» فإنما أردت كل ضرب من ضروب التفكير المنطقى الذى يسير سيراً استدلاليًا من الشواهد إلى النتائج .

وأما المجال الثانى فهو مجال التعبير عما تختلج به الذات . فها هنا يستطيع الإنسان أن يكون حرًّا من كل قيد وهو يعبِّر .. اللهم إلا القيود التى تفرضها قواعد الفنون المختلفة .

وأريد بهذا أن أخلص إلى النتيجة الآتية ، وهى أننا إذا ما كنا فى المجال الأول فلا بد من الاحتكام إلى ضوابط المنطق وحده ، ولا يجوز أن نستخدم فى أحد المجالين ما نستخدمه فى المجال الآخر . فكما أنه لا منطق فى مجال التعبير الذاتى ، فكذلك لا يجوز أن نشطح شطحات الصوفية أو الشعراء أو غيرهما ونحن بصدد قضية عامة ، الحكم فيها للعقل وحده .

منهج لا فلسفة :

- **تعرضت الوضعية المنطقية لخلاف كبير بين المفكرين . فما هو -فى تصورك- سبب ذلك؟**

ـ لقد أثار موقفى من الوضعية المنطقية - منذ أكثر من عشرين عاماً حتى اليوم -جدلاً كثيراً فى الصحف والمجلات ، وأعتقد أن هؤلاء المجادلين ربما خفَّفوا من غلوائهم بعض الشىء لو لم تفتهم نقطة مهمة وهى أن الوضعية المنطقية ليست فلسفة ولا مذهباً ، ولكنها منهج مؤداه أن نستخدم العقل وحده فيما يقتضى استخدام العقل - على أن ننحى الجوانب الذاتية ليكون لها مقاييسها الخاصة - ..

لو أدركوا هذا لما كان ثمة من داعٍ لكل هذا الجدل .. لقد ظنوا أنها مذهب يريد أن يفسر الكون أو أن يفسر الإنسان من حيث المبدأ والمصير ، إلى غير هذه المشكلات التى تتعرض لها المذاهب الفلسفية الأخرى .

وحسبى هنا أن أقول هذه الكلمة القصيرة فيها ، وهى أنها منهج يشترط على المتكلم أو الكاتب إذا ما قصد بكلامه أو بكتابه موضوعاً مشتركاً بينه وبين الناس ، أن تجىء عبارته مشيرة إلى الموضوع الذى يدور حوله الحديث ، إشارة يمكن محاسبته على تفصيلاتها ، لكى يسهل بذلك الوصول إلى تفاهم بين المتكلم والسامع ، أو بين القارئ والكاتب .

ولنلحظ هنا أن مثل هذا المنهج العلمى فى ضبط العبارات اللغوية إنما كان تفريعاً ضروريًّا من عصر العلوم الذى نعيشه اليوم ، إذ لما كانت العبارات العلمية ، أو قضايا العلوم ، هى ذات الأهمية العظمى ، ثم لما كانت لها الضوابط الضرورية فى صياغتها ، تفرَّع عن ذلك منهج يحدد الشروط التى يجب أن تتوافر فى عبارة يزعم صاحبها أنها عبارة علمية .

ثلاث فلسفات :

• **أين تقف الوضعية المنطقية بين الاتجاهات الفلسفية المعاصرة فى العالم ؟**

ـ أريد أن ألفت نظر القارئ هنا إلى نقطة مهمة ، وهى أن عصرنا هذا كان يستحيل عليه أن يكون عصراً واحداً ، ما لم تكن ثقافته موحدة الجذور وموحدة الفلسفة ، برغم الاختلافات الظاهرة فى الاتجاهات المختلفة .

فنحن إذا أدرنا البصر فى أرجاء العالم وجدنا ثلاث مناطق فلسفية تتعاون كلها على إيجاد وقفة معاصرة واحدة ، وهى :

أولاً : منطقة شمال غرب أوروبا مع الولايات المتحدة الأمريكية ، فهذه فلسفتها فلسفة علوم، وها هنا نجد أنصار الوضعية المنطقية ، ونجد كذلك أنصار الفلسفة التحليلية، وغير ذلك من الاهتمامات التى تُعنى بقضايا العلوم وحدها ، دون الإنسان من حيث هو إنسان .

ثانياً : هنالك منطقة غرب أوروبا ، وها هنا نجد فلسفة تهتم بالإنسان من حيث هو فرد، وهى الفلسفة الوجودية ، لا لأنها تعارض فلسفة العلوم ، ولكن لأنها تتناول جانباً آخر لتجول فيه .

ثالثاً : شرق أوروبا ، وها هنا نجد الاهتمام منصبًّا على الإنسان ، من حيث هو مجتمع ، لا من حيث هو أفراد مستقل بعضهم عن بعض ، وهى الفلسفات الاشتراكية .

وواضح من ذلك أن هذه المناطق الثلاث هى – فى الحقيقة – مكملة بعضها لبعض ، بدليل أن فيلسوفاً مثل سارتر من فلاسفة الوجودية الغربية يحاول منذ سنين أن يوائم بين موقفه وموقف الاشتراكيين .

وهؤلاء وهؤلاء معاً لا يستغنون بالطبع عن العلوم وفلسفتها .

الميتافيزيقا :

• **ما هو موقفك من الميتافيزيقا فى ضوء التزامك بالوضعية المنطقية ؟**

ـ لسوء الحظ كلمة مهمة كهذه ليس متفقاً على معناها ، غير أننا نقول بصفة عامة إن لهذه الكلمة معنيين فى تاريخ الفلسفة : أحدهما يقتضى البحث فيما وراء الطبيعة ، والآخر يريد

فقط البحث فى الجذور الأولية التى تنبثق منها القضايا العلمية (كما هى الحال عند عمانوئيل كانْت) .

فإذا كانت الميتافيزيقيا مأخوذة بالمعنى الأول ، فأنا لا أتحمس لها ، لأنها بحكم تعريفها تبحث فيما لا يمكن الوصول فيه إلى نتائج تدوم صحتها على مر القرون .

وأما إذا كانت مأخوذة بالمعنى الثانى فأنا من أنصارها ، بحكم كونى قد اخترت المجال العلمى ليكون مجالاً للنشاط الفلسفى كذلك .

فكر مستعار :

- **رغم الاتصال الحميم بين العقلية العربية والفلسفات العالمية ، إلا أننا لا نستطيع أن نزعم أن لدينا فلسفة عربية تجسد الكيان العربى . فما هى العوامل التى أدت إلى هذا القصور؟**

- إننى أوافق على أنه لا فلسفة عربية لنا فى العصر الحديث كله ، وذلك لسبب بسيط وهو أنه لا فكر لنا ، فالفكر كله عندنا مستعار إما من الغرب اليوم ، وإما من التراث القديم. وكل جهدنا بعد ذلك شروح لهذا أو ذاك . على حين أن الفلسفة لا تكون إلا استقطاباً للنشاط الفكرى الموجود ، فالشرط الأساسى فى وجودها أن يكون هنالك فكر أصيل ، ثم يأتى الفيلسوف فيستخلص المبادئ الأولى المضمرة فى ذلك الفكر الأصيل .

الحاضر والمستقبل :

- **ترى أن «التطور» هو الأساس الحيوى الجديد المميز لعصرنا .. فما هى طبيعة وآفاق التطور؟**

- عندما أقول إن «التطور» هو الأساس الحيوى الجديد الذى يميز عصرنا ، فإنما أعنى بذلك أن الكون فى حقيقته - بما فى ذلك الإنسان وغيره من الكائنات الحية - إنما يسير سيراً نامياً . فإذا وضعنا أمام أبصارنا هذا الأساس واضحاً ، تحتمت النتيجة الآتية ، وهى أن المستقبل لابد أن يكون أكبر من الحاضر وأرقى ، وأن هذا الحاضر لابد أن يكون أكبر من الماضى وأرقى . وإذا كان الأمر كذلك فلا معنى لارتداد هذا الحاضر إلى الماضى يأخذ منه مقاييسه ، كما أن المستقبل لن يأخذ مقاييس الحاضر . وأما إذا وجدنا كاتباً معاصراً يفتح كتب الأقدمين لتكون مقياسه فى حياته اليوم ، فعندئذ نعلم أنه يسير عكس التيار التطورى .

ولعل أبرز الفروق بين الماضى والحاضر أن الفرد الواحد الضخم كان فى الماضى هو المحور ، سواء كان هذا الفرد فيلسوفاً فى مجال الفلسفة ، أو قائداً حربيًّا فى مجال الغزوات العسكرية . وأما اليوم فيلاحظ أن الأفراد الضخام ليسوا هم طابع العصر ، ولكن الطابع هو المشاركة بين مجموعة من الأفراد ، فأنت مثلاً لا تعرف من الذى صنع الصاروخ .. لأنه ليس فرداً ، إنما مجموعة قد تعد بالآلاف تضافرت فى إنتاج العمل الواحد .. وكذلك فى الفلسفة ، وفى الفكر بصفة عامة .

الشخصية العربية الجديدة :

- **ذكرت فى إحدى مقالاتك أن الشيخ محمد عبده هو الذى بدأ الطريق الصحيح نحو تكوين الشخصية العربية الجديدة .. فإلى أى مدى مضى المفكرون العرب من بعده فى هذا الطريق ؟**

ـ أعتقد أن المشكلة الكبرى فى حياتنا الفكرية هى المواءمة بين شخصيتنا العربية وثقافة العصر الراهن بما فيه من علوم .. وقد كان الشيخ محمد عبده من أوائل من حاولوا أن يفسروا الأسس الدينية والتراثية تفسيراً يتفق مع العلم الجديد ، ليخلق بذلك موقفاً فيه أصالة وفيه معاصرة .

كما أعتقد أن هذا المنحى نفسه هو الذى يسود فى كل تصدى للتفكير بعد ذلك ، باستثناءات قليلة لأشخاص اكتفوا بالثقافة الغربية وحدها أو التراث وحده .

المدينة الكبيرة :

- **بحكم اشتغالك بالنقد الأدبى إلى جانب الفلسفة ؛ ما هو -فى نظرك- التناول الأمثل للنصوص الأدبية ؟**

- العمل الأدبى أو الفنى كالمدينة الكبيرة ، ليس الدخول فيها والسير فى شوارعها محتوماً بطريقة واحدة . وإنما قد يدخلها أحد السائحين ليرى متاحفها ، وقد يدخلها الآخر ليرى ملاهيها ، وقد يدخلها الثالث ليتاجر بالبيع والشراء . وهكذا النقاد فى تناولهم للقطعة الأدبية . ليس هناك ما يحتم أن يكون هناك هدف واحد بعينه للناقدين جميعاً ، فربما كان الهدف عند أحدهم أن يستشف نفسية الكاتب . وربما كان الهدف عند آخر أن يرى طريقة الصياغة اللفظية . والهدف عند ثالث أن يتعرف على الحياة الاجتماعية وهكذا . . فالذين

يقتتلون على أى هذه المذاهب أصدق من تلك قد جانبهم الصواب ، لأنها كلها تتكامل فى توضيح القطعة الأدبية ، ولا تعارض بينها .. فيا حبذا لو قرأنا النقد من كل نواحيه ومذاهبه للقطعة الواحدة ، فنزداد لها فهماً .

الشعر والنثر :

- **على الرغم من أن الشعر فى أنحاء العالم يعد سلاحاً من أسلحة الكفاح والدفاع عن الإنسان بما ينطوى عليه من دلالة ، إلا أنك تعتبر أن «الشعر لا ينبئ» .. فهل لك أن تطرح وجهة نظرك إزاء هذه القضية ؟**

ـ إنى أفرِّق تفرقة واضحة بين ما يؤديه الشعر ، وما يؤديه النثر .. مع توسيعى لكلمة شعر توسيعاً قد يضم ضروباً من النثر تؤدى نفس الوظيفة الشعرية .

وأساس التفرقة هو المضمون .. فإذا كان المضمون حديثاً عن أمر واقع لا اختلاف عليه ؛ جاءت العبارة فى حقيقتها بحيث يجوز لأى إنسان أن يناقش المتكلم أو الكاتب فى صواب وخطأ ما يقوله ، استناداً إلى هذا الأمر الواقع الذى بين أيديهما .

لكن هنالك نوعاً آخر من القول ، لا يشير إلى الأمر الواقع إشارة مباشرة ، وإنما يبنى بناءات تصورية ، يخلقها الأديب خلقاً من عنده ، وقد توازى الواقع بطريقة غير مباشرة، وقد لا توازيه . فها هنا لا يجوز لأحد أن يحاسب الأديب على مطابقة كلامه للواقع كما نراه.

افرض مثلاً أننا سمعنا أبا العلاء المعرى يقول : «أبكتْ تِلْكُمُ الحمامةُ أم غَنَّتْ» فهل يجوز لأحد أن يقول معه : تعال معى إلى الحمامة لنرى أهو بكاء أم غناء ؟! ..

كلاَّ ، لأن المرجع – هنا – ليس هو هديل الحمامة فى ذاته ، بل هو تساؤل داخلى عند الشاعر يقف به أمام الوجود كله : هل هو فى حقيقته مأساة أم ملهاة ؟

وهكذا نجد الشعر يحتكم إلى مقياس آخر غير المطابقة المباشرة .. ومن هنا فهو لا ينبئ القارئ بنبأ جديد ، لكنه يعطيه وقفة أو نظرة نحو الوجود .

نزعة النغم :

- **تأخذ على الثقافة العربية عدم انضباط دلالات اللغة على ألفاظها .. فما هى أسباب هذا التفاوت ، وما مداه الراهن ؟**

ـ نعم ، فإن من خصائص اللغة العربية العناية بالنغم على شتى صنوفه ، سجعاً أو غير سجع

ولذلك فكثيراً ما يحكم هذا النغم على الكاتب أن يضع مترادفات لا لتزيد المعنى وضوحاً ودقة ، ولكن لتزيد النغم إيقاعاً . ولقد أصبح هذا المنحى هو المدار -فى كثير من الحالات- الذى يدور حوله الكاتب العربى منذ القدم وحتى يومنا هذا . صحيح أن الصحافة كان لها أكبر الأثر فى أن تلجم هذه النزعة إلجاماً يدعو الكاتب إلى عدم الإفراط فى الزينة اللفظية، لكننا فى الوقت نفسه لا نزال نظن أن لغة الصحافة تختلف عن لغة الأدب ؛ لهذا السبب نفسه . وعندما يريد الأديب أن يكون أديباً تراه ينتكس إلى مداره القديم .. أقول هذا وأنا على علم بأن الأديب العربى يسير سيراً جادًّا نحو التغيير ، بفضل اتخاذه قوالب جديدة ، هى قالب القصة وقالب المسرحية ، مما يخفف نزعة النغم.

مجال الصحافة :

- **أثيرت فى الصحافة المصرية بعض المشكلات الفلسفية .. فإلى أى مدى ترى ذلك محققاً للفائدة ؟**

- الظاهر أن كثيرين من الناس يريدون للفلسفة أن تكون طعاماً مشتركاً للجمهور بكل ما بين أفراده من تفاوت ثقافى ، ويتناسون أن الفلسفة من حيث هى دراسة ، كأى تخصص علمى آخر ، له رجاله ، يفهم بعضهم عن بعض ، وليست الصحافة مجال ذلك . كما أن الفيزياء النووية لها مجالها ، ويفهم رجالها بعضهم عن بعض ، وليست الصحافة مجالها . ولكن هذا لا يمنع من تبسيط للفلسفة أو للفيزياء النووية ، يُنشر على الناس .. على أن يكون مفهوماً أنه تبسيط ، وليست الطريقة التى يتفاهم بها المختصون بعضهم عن بعض . ومن لا تؤهله دراسته الفلسفية للخوض فى المشكلات الفلسفية ، لا يجوز له -فى نظرى- أن يتعرض لها إطلاقاً ، بحيث يظن أنه قد أصبح والمختص فيها على قدم المساواة يناقش أحدهما الآخر على ملأ من الناس .. لأن فى ذلك ترخيصاً للفكر العلمى .

الحوار الثانى (*)

يمثل الدكتور زكى نجيب محمود فى حياتنا الفكرية مجموعة من المعانى التى ينتظمها نسق فكرى كامل ، نلتقى به فى عشرات الكتب المؤلفة والمترجمة التى صدرت له خلال نصف قرن أو أكثر . وعلى الرغم من تقدمه فى العمر ، لا يزال الدكتور زكى نجيب محمود قادراً على توليد الكثير من الأفكار والرؤى الكامنة فى نفسه ، بعد أن أصبح عاجزاً عن القراءة ، لا يرى ما يكتبه على الورق .

ويمكن أن نجمل هذه المعانى التى تثير من الخلاف قدر ما تثير من الإعجاب ، فى الدعوة إلى المعرفة العلمية ، إلى العقلانية ، وفى التمسك بالاتجاه التجريبى الذى تتحقق فيه المعرفة الدقيقة للمشاهد الفرد بخبرة الحواس المباشرة . وهو ما يعرف فى المصطلح الفلسفى بالوضعية المنطقية ، وضعية لأنها تعتمد على المعطيات الحسية ، ومنطقية لأنها تحلل العبارات تحليلاً منطقيًا . ومع هذا فأول ما يؤخذ على هذه الفلسفة أنها تلغى - فى قياسها المرجعى - التاريخ، كما تلغى المفاهيم العامة حين تتعلق بأشياء خارجية لا تراها العين ومن ثم لا ينطبق عليها فى عرف هذه الفلسفة شرط التحقق أو المعرفة بخبرة الحواس . وإلغاء دروس التاريخ والمفاهيم العامة الكلية يؤدى إلى ضياع الكثير من الخبرات والمعارف الإنسانية التى تعتبر من عوامل التحولات المنشودة والتقدم .

لهذا لم يكن الخلاف فى مصر حول الوضعية المنطقية التى تبناها الدكتور زكى نجيب محمود خلافاً مجرداً فى المطلق ، ولكنه كان بعض أبعاد الصراع الاجتماعى والسياسى على الساحة بين التوجهات المتقدمة فى الفكر والفن والثقافة التى يطرحها الفكر الاشتراكى ، وهذه التوجهات الموصولة بموقف أو تيار تقليدى ليبرالى نفعى يدعو إليه الدكتور زكى نجيب محمود بإيمان وطيد لا يتزعزع . وتعتبر قضية الأصالة والمعاصرة أو الثقافة الموروثة وثقافة الغرب إحدى القضايا الرئيسية التى تشغل حيزاً مهمًّا من اهتمامات الدكتور زكى نجيب محمود حتى تستطيع

(*) نشر فى مجلة «الدستور» - لندن .

الأمة العربية والثقافة العربية باللقاء والتفاعل مع الغرب وأن تشارك فى موكب العصر بالأخذ بالحضارة وتقنياتها وبالمدنية ووسائلها ، وأن تصنع ثيابها بنفسها ولا تستعيرها من غيرها .

إن تفاعل العناصر المختلفة بمثابة انقداح الشرارات عند احتكاك الأحجار يفضى إلى خلق عناصر جديدة يتكامل كيانها خلال النماء والتطور . ويتصل بهذه القضية ، أو يتفرع عنها ، معتقد يبلغ درجة اليقين بأن مواجهة المشاكل لا تكون إلا بتأملها بالطاقة العقلية ، وبما يمليه علينا قانون الحياة . والدكتور زكى نجيب محمود يريد لنا أن نعيش صحوة عقلية ، نحيا بها حياة العصر ، دون أن نفقد مقومات أو ثوابت شخصيتنا العربية التى تخلع علينا الهوية ، على أن نتجاوز الموقف السلبى - الذى يقتصر على الأخذ ، أو عبور جسور المستقبل والرؤوس ملتفتة إلى الماضى - إلى الموقف الإيجابى الفعال ، الملمّ بالمتغيرات الحضارية ، الذى يشارك بالإضافة الجديدة والإبداع الجديد .

وفى هذا الحوار مع د. زكى نتعرف على عدد من أفكاره كمختص فى الفلسفة ، دائم الدراسة لمشاكلنا الثقافية ، سواء قدم لها الإجابات أو اكتفى بإثارة السؤال ، الذى قد يكون أعمق أثراً فى تاريخ الفكر من الإجابات الجاهزة . وقبل أن نتعرف على هذه الأفكار ، يحسن أن ننظر أولاً - وبكلمات د. زكى - فى خلفيته الفكرية التى يصدر عنها ، وقوامها الأساسى : منهجية التفكير ، والطابع الموسوعى الذى تتسم به مؤلفاته .

• **يقول الدكتور زكى نجيب محمود تعليقاً على هذا الوصف :**

- أما منهجية التفكير فهى نتيجة مباشرة للدراسة الأكاديمية الطويلة التى اجتزت مراحلها جميعاً حتى بلغت ذروتها ، ثم توليت التدريس فى الجامعة بجميع مراحله .

إذن : فمن حيث أنا دارس ، ومن حيث أنا محاضر فى المجال العلمى ، لابد أن تنتج عن هذا صياغة منهجية فى ترتيب الأفكار ، مقدمات يتلوها نتائج . يضاف إلى ذلك أن دراستى وتدريسى - كليهما - قد اتخذا المنهج العلمى محوراً للتخصص ، فلم يقتصر الأمر معى على أنى تشرَّبت المنهج من المجال العلمى فى الدراسة والتدريس ، بل إن المنهج العلمى - من حيث هو موضوع فلسفى قائم بذاته - هو مجال تخصصى الأكاديمى .

هذا من حيث منهجية التفكير .. وأما من حيث ما قد أسميته بالموسوعية ، فلم يكن لها من

مصدر إلا الدأب المتواصل على القراءة ، مضافاً إليها طول العمر .

على أنى لا أستريح علميًا لكلمة موسوعية فى هذا المجال ، لأن الموسوعية تتضمن أن تكون المعلومات مفرقة الاتجاه ، فلا فرق بين أن أتحدث عن موضوع الحضارة ، أو عن طهو الطعام ، أو عن الألعاب الرياضية ، أو عن شجر البرتقال . . فكلها موضوعات تجتمع معاً على صفحة واحدة ربما فى الموسوعة ، لا يربط بعضها ببعض إلا إنها مرتبة ترتيباً أبجديًا .

ولو كانت حصيلتى المعرفية بهذا الخليط الذى لا يفرق بين موضوع وموضوع لما كانت لها قيمة علمية . لكن حصيلتى المعرفية هذه لها محور أساسى ، ثم أُضيفَ إلى هذا المحور فروع تتصل به ، وليست هذه الصورة المتوقعة من الموسوعية .

• هل يمكن أن تضع يدنا على الأسس الفكرية أو المنهج الذى تعاملت به مع الحياة الثقافية فى صراعاتها المختلفة ؟

ـ كان لى خط فكرى واحد التزمته التزام من يعتقد فكرة معينة ، منذ ثلاثينات هذا القرن وحتى يومنا هذا ، أى أنى التزمت هذا الخط الفكرى نحو ستين عاماً . وبطبيعة الحال كنت أزداد فيه اتساعاً وعمقاً ، كلما قرأت عنه ما يزيده عندى معنى . وذلك الخط الفكرى هو اعتقادى بأننا لو كنا على وعى كامل بالفرق بين مجالين من مجالات الإدراك البشرى، بحيث لا نخلط بين هذين المجالين ، لاستقامت للناس طرق التفكير وسلامة المنهج ؛ وبالتالى فإنهم لم يكونوا ليضيعوا وقتاً كما يفعلون فى لجاجات فكرية أساسها عدم القدرة على الفصل الواضح بين هذين المجالين .

أما أحد المجالين فهو مدركات العقل . وأما المجال الثانى فهو مدركات الوجدان . ونحن هنا لا نتحدث عن أى المجالين أفضل ، أو أى المجالين أصدق ، أو أى المجالين أولى باهتمام الإنسان من الآخر ، لكننا نقرر حقيقة واقعة وهى أن الإنسان قد فُطرت فطرته على أن تزدوج معه طرق الإدراك لتصبح متمثلة فى هذين المجالين .

والفرق واضح وحاد ومهم بينهما . فأما مجال المدركات العقلية فهو ذلك المجال الذى تأتى فيه المعرفة بطريق استدلالى ، أى أنها معرفة غير مباشرة ، بمعنى أننا نجد بين أيدينا معطيات معينة فننتقل منها إلى نتائج تترتب عليها . إذن : فالحركة العقلية صميمها هو الانتقال من طرف إلى طرف . صميمها هو حركة ينتقل بها الإنسان المدرك من معطيات معينة إلى ما يتولد عنها . وهذا هو العقل إذا أردنا تعريفاً دقيقاً . ومن أهم ما ينتجه مثل هذا الإدراك الانتقالى ،

الاستدلالى ، غير المباشر ، مجالات أو ميادين العلوم ، فكل علم سواء كان علماً رياضيًّا ، أو علماً طبيعيًّا ، أو علماً اجتماعيًّا ، ليس فيه قانون واحد من قوانينه إلا وقد وصل إليه الإنسان عن هذا الطريق الانتقالى أو الاستدلالى ، الذى انتقل من معطيات أو مقدمات إلى النتائج التى هى القوانين العلمية .

وأما المجال الثانى - مجال الوجدان - فعلى عكس ذلك تماماً فى طريقته الإدراكية ، لأن الإنسان وهو فيه يدرك ما يدركه إدراكاً مباشراً ، بمعنى أنه ليس هناك حركة انتقالية من معطيات إلى نتائج . ولكنه إدراك يقف عند المعطى ولا يتحرك ، تماماً مثلما نضع قطعة من السكر على اللسان فندرك حلاوتها . ليس هنالك انتقال استدلالى من السكر إلى الطعم الحلو ، ولكن اللمسة المباشرة بين السكر واللسان قد أعطت الإنسان ما أعطته إياه من معرفة بطبائع الأشياء . وما نقوله عن الذوق باللسان نقوله عن كل إدراك نجد أنفسنا قد تقبلناه تقبلاً مباشراً . وأهم الموضوعات التى ندركها بهذه الطريقة المباشرة هى الدين ، والفن بكل صنوفه ، بما فى ذلك الفن الأدبى . فأما الدين فالمؤمن يؤمن بما آمن به مباشرة ، فور تقبله وقبوله معاً . إنه لا يقوم بحركة استدلالية ، بل هو يسمع من يبشره بعقيدة ما فيجد شيئاً فى ذاته قد تقبَّل ما أُعطى إليه . هذا الموقف نفسه هو موقف الإنسان من أى ناتج فنى . أرى الصورة ، أو أقرأ القصيدة ، أو أسمع المعزوفة ، فأحتفل بها ، أى : أُسَرُّ لها ، فينتهى بهذا التقبُّل كل ما بينى وبين ما تلقيته.

إلا أننا لابد أن نتذكر أن الإنسان قد يسأل نفسه فى كلتا الحالتين : حالة الإيمان ، وحالة التذوق الفنى : على أىِّ أساس قبلت هذا أو ذاك ؟ أى : قد يسأل نفسه عن العناصر التحليلية التى يتضمنها موضوع الإيمان أو موضوع الفن . وها هنا تنشأ علوم مثل علوم الدين ، أو مثل النقد الفنى والنقد الأدبى . على أننا يجب ألَّا نخلط بين المرحلة الإدراكية المباشرة الأولى ، وبين ما قد أقمناه عليها من استدلالات علمية ، لأن هذا الذى أقمناه عليها عملية مستقلة ، قد تتوافر وقد لا تتوافر ، قد تقع وقد لا تقع ، دون أن يحدث تغيير فى المرحلة الإدراكية المباشرة الأولى ، أى أن الذى آمن بدين ما سيظل يؤمن بما آمن به ، سواء قامت عليه علوم دينية أم لم تقم . وكذلك الذى أعجبته معزوفة موسيقية سيظل معجباً بها ، سواء وجدت من نقاد الفن من يحللها إلى عناصر ، أم لم تجد .

هذان المجالان يجتمعان معاً فى كل إنسان ، أى أنهما قناتان زُوِّدَ بهما كل فرد . كثيراً جدًّا ما يتشابهان إلى درجة أن نخلط بينهما ، فنظن مثلاً أن منتجات المجال الأول يمكن أن تكون

وجدانية ، ومنتجات المجال الثانى يمكن أن تكون عقلية .

وها نحن أولاء نسمع هذه الأيام محاولات الزعم بعلمية الدين ، أى أنهم يحاولون استخراج العلوم من المصادر الدينية التى هى موضوع إيمان ، أو العكس فقد نظن أن بعض ما ندركه إدراكاً مباشراً - كحب الإنسان لوطنه مثلاً ، أو كحالات الغضب أو الكراهية أو الإعجاب - قد نظن أن فيها لمحة عقلية فيحدث الخلط ، وبالتالى يحدث ما يثير المعارك والقتال .

- **لكل كاتب ومفكر محور يدور حوله ، مهما ترامت لديه آماد التعبير .. فكيف تنظر إلى إنتاجك الفكرى فى هذا الضوء ؟**

- إذا دققت النظر فى جزء كبير جدًّا مما أكتبه وجدته فى جوهره نقداً ، وأعنى بالنقد هنا تحليلاً للمفاهيم الأساسية التى تدور حولها الحركات الفكرية فى مجتمعنا العربى ، لأساعد القارئ على التمييز الذى أشرت إليه بين ما يجوز ، وما لا يجوز فيه الاختصام، أو بين ما هو واضح وما ليس واضحاً فى أفكارهم ، وهى عملية نقدية ربما كانت هى أهم عنصر فى حركات التنوير التى يشهدها الناس آناً بعد آن فى الثقافتين العربية والأوروبية على حد سواء .

- **خضت عدة معارك فكرية .. كيف تراها الآن بعد أن انطوت صفحاتها ؟**

- أنت تسألنى عما أسميته معارك فكرية بينى وبين آخرين فى مراحل عمرى المختلفة ، فأقول الآتى : إنها لم تكن - من وجهة نظرى - معارك . إنما كانت فى جميع الحالات تحليلاً لفكرة على نحو يبين أن من يستخدمون هذه الفكرة إنما يستخدمونها على شىء من الغموض ، ويظنونها واضحة ، فكل ما كنت أعمله هو محاولة التحليل من أجل التوضيح ، وبعد ذلك فليقبل من يقبل ، وليرفض من يرفض .

ومثال ذلك : جاء وقت فى تاريخنا الثقافى الحديث كثرت فيه المعانى المأخوذة أساساً من الفكر الماركسى ، ومن أهم تلك المعانى أن الأساس المادى فى الحياة - كوسائل الإنتاج - هى المسؤولة عن تركيبة الحياة الفكرية فيما بعد ، أى أن الحياة الثقافية كلها هى انعكاس فوقى -كما يقولون- للوسائل والطرق والصور والعلاقات التى ينتج بها المنتجون فى الصناعة والزراعة وغيرها .

مثل هذه الفكرة أخذتها أنا بالتحليل ، لا عن عداوة ولا عن صداقة ، إنما وجدت نفسى أمام موقف يقول إن الوضع المادى يوجد أولاً ، والفكر والفن والأدب يوجد ثانياً .

والسؤال هو : هل هذا صحيح ؟ فما علىَّ إلا أن أحلل لنفسى حقيقة الموقف ، فقلت - فيما قلته - : لنأخذ كتاب ماركس نفسه «رأس المال» كمثل ، فنجد أن هذا الكتاب هو فكرة ، فهل جاء الكتاب بعد تطبيقاته فى روسيا وغير روسيا ، أم أن العكس هو الذى حدث ؟ أى أن الفكرة جاءت أولاً ، ثم وجدت محاولات تطبيقها .

هذا فى حد ذاته برهان حاسم على أننا حتى ونحن فى مجال النظرية الماركسية نفسها فنحن أمام نظرية أولاً ، أى أننا أمام فكرة أولاً ، ثم يأتى التطبيق أو لا يأتى .

وما أكثر المواقف التى تناولتها بمثل هذا التحليل العقلى الصِّرْف ، لأوضح أفكاراً مهمة ، فإذا تصادف أن هذا التحليل يعارض اتجاهات معينة عند بعض الناس ظنوا أننى أخاصمهم وأعاركهم ، وليس هذا صحيحاً .. ومن حق من يقرأ كتاباتى أن يأخذ بطريقتى فى التحليل ، أو لا يأخذ .

obeikandl.com

الحوار الثالث (*)

فى مثل هذه الأيام من السنة المقبلة (١٩٩٠م) يطفئ الدكتور زكى نجيب محمود ٨٥ شمعة ، سنوات عديدة من حياة ثرية بالفكر ، حافلة بالإنتاج الفلسفى والأدبى والنقدى .

وإذا كانت وزارة الثقافة تريد با-حتفالاتها بالذكرى المئوية لميلاد الكتَّاب الراحلين أن ترسى تقليداً مهمًّا يتواصل به تاريخنا الثقافى ، تجلَّى فى إحياء ذكرى د . محمد حسين هيكل فى السنة الماضية (١٩٨٨م) ، وإحياء ذكرى د . طه حسين وعباس محمود العقاد ومحمد ناجى هذه السنة (١٩٨٩م) ، فإن احتفالها بميلاد الأحياء من الكتَّاب والشعراء والنقاد والفنانين ، سيحمل بلا شك من المعانى ، بل ومن الفوائد الجمة ، ما لا يقل فى أهميته وقيمته عن الاحتفال بالراحلين ، إن لم يزد ، بالوضوح الفكرى الذى يمكن أن يتحقق حين يكون التقدير والحوار والتتويج لشخصية حية بيننا ، لا تزال قادرة على جمع حصاد الأيام و الليالى .

والدكتور زكى نجيب محمود أحد الأسماء القليلة فى ثقافتنا العربية المعاصرة ، الذين يمثلون مجموعة من الأفكار والرموز التى أثارت تقديراً ملحوظاً من البعض ، واختلافاً شديداً من البعض الآخر . ولكن الاختلاف حوله لا يقلل من قدره ، وإنما كان دائماً دليلاً على مقامه الكبير فى حياتنا الثقافية ، وعلى ما يتمتع به من إكبار فى نفوس المثقفين ، الذين يدركون دوره كمفكر كبير فى إضاءة الطريق أمام الرأى العام ، حتى تتغير صورة المجتمع .

ولأن الخلاف حول المواقف والأفكار يثرى الحركة الثقافية بتعدد الألوان أُجمل هنا بعض ما أثاره الدكتور زكى نجيب محمود فى هذا المجال :

يدعو الدكتور زكى نجيب محمود إلى الوضعية المنطقية ، وهى فلسفة تقصر بحثها على ما هو ملموس فى الحيز المتعين ، وعلى ما هو جزئى . وبذلك تنتفى لديها أية قيمة للتاريخ أو للمفاهيم العامة الكلية ، التى تمثل جزءاً حميماً من صراع الإنسان من أجل المعرفة والتقدم .

(*) نشر فى مجلة «الثقافة» - القاهرة .

يرى الدكتور زكى نجيب محمود أن الشرق روح الفن ، والغرب مادة وعقل . ومثل هذه التفرقة العامة أو المقابلة المجردة انطباع ذاتى وتقسيم مصطنع ، يتجاهل الواقع العيانى ، موضوع التاريخ ، وتجربته الإنسانية الحية ، وفعاليته فى المكان والزمان .

لا يعترف الدكتور زكى نجيب محمود بغير الشعر الذى يُنظم وفق عمود الشعر الموزون المقفى ، ذلك أن الشعر فى نظره لا يكون شعراً ، إلا إذا توافر له الشكل أو (الفورم) ، والشكل عنده هو الوزن والقافية . والشعر الحر - على إطلاقه - لا يحقق هذا الشرط ، ورأيه كما هو الرأى عند العقاد وعلى الجندى وصالح جودت وغيرهم ، الذين عارضوا الشعر الحر .

وهذا يعنى أن الشكل عند الدكتور زكى نجيب محمود لا يتغير أو يتطور ، رغم كل المتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى يعكسها ، وتصوغها المواقف والأذواق والعادات ، بما تمتلكه من تأثير على الإبداع والمبدعين .

يؤمن الدكتور زكى نجيب محمود بأن الفكر هو الذى يحرك التاريخ ، على نحو ما يعبر فى هذا الحوار . وهى فكرة مثالية تتناقض مع ما هو مسلَّم به من أن المادة سابقة على الفكر ، وهى - أى : المادة - التى تشكله . فالفكر شكل من أشكال تطور المادة ، يخرج منها حين تصل المادة إلى مرحلة من مراحل هذا التطور .

الفن فى نظره لا يحمل دلالة أو مضموناً ، أى : لا ينبئ عن شىء خارجه . ومقاله الذى نشر فى مجلة (الرسالة الجديدة) فى الخمسينات قبل احتجابها بعنوان (الشعر لا ينبئ) يقدم هذه الرؤية بأوضح تعبير .

والناقد الأدبى ينبغى ألا يتجاوز فى دراسته القطعة الأدبية نفسها. والمبدأ الذى يقوم على أساسه النقد لا يُستخلص من الواقع المعاصر ، ولكن من التراث الماضى .. وهذا يعنى أن القطعة الأدبية مقطوعة الصلة بالبيئة المكانية و الزمانية التى صدرت عنها ، كما أنها مقطوعة الصلة بشخصية مبدعها أيضاً .

وبذلك ينفى د. زكى كل صلة للإبداع بالمجتمع ، رغم ما هو مسلَّم به من أن الإبداع مصباح يكشف سمات المجتمع ، على حين أنه يكتسب هذه السمات التى تمثل منطق التعبير من هذا المجتمع ، بكل هياكله ، دون أن يخرج على أصوله كفن ويتحول إلى دعاية .

يؤكد هذه الرابطة الوثيقة بين الفن والمجتمع ما ندركه من أن الأدب والفن - بعامة - يسمو بسمو المجتمع ، ويهبط بهبوطه .

إن المقياس الذى يرجع إليه د. زكى لقياس الإبداع المعاصر - بنص قوله - مقياس يرجع إلى عصور ماضية ، كان الإبداع فى بعضها خادماً للملوك والأرستقراطية، خاضعاً للاستعمار والإقطاع والطبقية ، ونحن فى زمن مختلف من كل النواحى ، نرفع فيه شعار الديمقراطية والاشتراكية ، فضلاً عن حضارة القرن العشرين التى لا تقارن بما سبقها من حضارات ، وفى مقدمة هذا الاختلاف جانبها التقنى المحض، وما يحمله من توجُّه أيديولوجى اليوم وفى المدى القادم ، سيؤدى بالضرورة مع عوامل أخرى إلى تغييرات شتى.

ومع هذا فلن يقلل هذا الخلاف - على شدته - من قيمة الكثير من المعانى التى تتجذر فى كتابات الدكتور زكى نجيب محمود . إن فكره ثمرة ناضجة من ثمار البحث والاجتهاد والمعرفة العلمية الدقيقة، والمطالعات الواسعة فى الفكر والأدب والفن ، العربى والأجنبى ، يتمسك فيه بالحق كما يراه بإرادة حرة ، لم تطمع يوماً فى ذهب المعز ، ولا خشيت فى يوم سيفه .

والحوار التالى ، مع الدكتور زكى نجيب محمود ، وقفة هادئة، تحاول أن تلمس بعض جوانب عالمه الفكرى الذى يتميز - فى كل كلمة كتبها - بالجدية والعمق والأصالة ، والحرص الدائم على أن نفكر ونناقش وننسج ثيابنا بأيدينا ، ولا نكون مجرد نَقَلة نعبر الجسور ، وعيوننا تتلفت للماضى ، أو تتطلع للغرب . .

- **تنقسم المعرفة فى كتاباتك إلى معرفة عقلية ، ومعرفة ذوقية وجدانية .. فكيف تعاملت مع المجالين فى المعارك التى خضتها ؟**

- يجب أن نلحظ أولاً ، بالنسبة إلى هذين المجالين ، أن المجال العقلى لا يمكن أن يثير الغضب بين اثنين ، وبالتالى لا يمكن أن يثير حروباً بين الناس ، وإلا فهل يمكن أن تتصور أن علماء الضوء حين اختلفوا فى تحليل الضوء : هل هو خطوط ، أم هو متتالية ، أم هو موجات ؟ كل هذه أفكار يأخذ بها مجموعات من علماء الطبيعة . لكن هل يقوم قتال بينهم بالمدفع والدبابة ؟ هذا محال ، وغير متصوَّر . إذا اختلف علماء الرياضة على تحليل معادلة من المعادلات الرياضية فهل نتصور أن هذا الاختلاف قد يؤدى إلى حروب ؟ ! وهكذا نستطيع أن نؤكد أنه لو عرفنا كيف نفصل هذين المجالين لوجدنا أن كل ما يحدث من قتال

ومعارك وخصومات وسخط ورضا بين الناس ، إنما نشأ من المجال الثانى . لماذا ؟ لأن المجال الثانى لا يقام على منطق بحكم طبيعته ، وإنما يقام على قبول مباشر أو عدم قبول مباشر .

وهذا القبول أو عدم القبول مسألة فردية بحتة . بل إن الفرد الواحد قد يشتهى الطعام وهو فى حالة الصحة ، وينفر منه وهو فى حالة المرض . قد نجد المستمع العربى الذى لا يعجبه بيتهوفن كما نجد المستمع الأوربى الذى لا تعجبه أم كلثوم . وهكذا . .

فى هذا المجال الثانى لا يشترط فى المعرفة أن تكون مشتركة بين الناس لأن مثل هذا الاشتراك مقتصر على ما قد أُدرك بعملية استدلالية منطقية . أى : بالعقل .

أعجب ما يجب أن نتذكره هنا أنه حينما تكون المعرفة أدق - كما هى الحال فى المجال الأول - لا تنشأ خصومات . وحينما تكون المعرفة ذاتية ، شخصية ، ومعرضة للخطأ ؛ تكون الخصومات ، وتكون الحروب ، ويكون التطرف أيضاً . ولذلك إذا قيل لنا عن موجات التطرف الفكرى أو العقائدى ، أو شىء من هذا ، كيف نعالجها ؟ فلا جواب عندى إلا أن تكون المعالجة بأن نزيد الناس علماً ونزودهم بالمعرفة العقلية.

وليس ذلك حذفاً لمدركات المجال الثانى . بالعكس ، فالمجال الثانى قد يكون الأهم للإنسان فى حياته من المجال الأول ، إلا أنه مقتصر على الفرد الذى يدرك ، ولا يشترط فيه حتماً المشاركة الجماعية . مثل هذا الأساس قد جعلته محوراً منهجيًا أفرق به بين ما يجوز فيه المناقشة ، وما لا يجوز فيه المناقشة . واستطردت السنوات وتوالت ، فكنت أغذى هذا الموقف النظرى بما أجده من ناتج فلسفى يتفق معه . ولحسن الحظ هنالك من الفلاسفة من يقول شيئاً كهذا فى التفرقة ، فهؤلاء أخذت عنهم ما أشبعت به وجهة نظر رأيتها منذ الثلاثينات .

وليس هنا مجال ذكر التفصيلات العلمية وهى كثيرة جدًّا . ولكن يكفى أن أقول إن هذا هو موقفى فى التفكير وهو منهج يقتضى دقة التحليل . فإذا وجدت مثلاً فكرة ما شائعة فى المجتمع ، ولها تأثير فى سلوك الناس ، فأجد فى نفسى ميلاً إلى تحليلها وردها إلى عناصرها الأولية ، لأرى من أين جاءت ، ومن أى الطرق أدركها مدركوها ؟ فإذا وجدت أنها فى البداية كانت انطباعاً وجدانيًا مباشراً ، عرفت أنها ليست مما يجوز فيه المناقشة أو الخصومة . وقد أجد فى نفسى ما يدفعنى عندئذ إلى الكتابة ليقرأ الناس وجهة نظرى فى هذه الفكرة أو فى تلك الفكرة ، مما يشيع فيهم بالحق أو بغير الحق .

• **هل يمكن أن نتعرف على إحدى هذه الأفكار التى أثارت فى نفسك الدافع إلى مناقشتها ودحضها ؟**

ـ هناك ، على سبيل المثال ، معنى شائع جدًّا ، لأنه من صميم الفكرة الماركسية ، وهو الصراع القائم بين رأس المال والعمل . فى هذا التصوير افتراض بأن المجتمع يدير نشاطه حول محورين أو حول قطبين . فرأس المال من جهة عند بعض الناس ، والأيدى العاملة من جهة أخرى عند البعض الآخر من الناس ، فلم يسعنى إلا أن أصبَّ التحليل على هذه الصورة . هل حقًّا هذا هو كيان المجتمع؟ أليس هناك فئة ثالثة ، هى فئة المهنيين من أطباء ومهندسين ومحامين وباحثين علميين . . . إلخ ، هى فئة فى غاية الأهمية فى بنية المجتمع ، ولا هى من أصحاب رأس المال ، ولا هى من العمال .

ثم أراد الزمن أن يبين لنا فيما بعد ذلك أهمية عنصر رابع وهو الإدارة ، وأظنه لا جدال الآن بأن الإدارة ربما تكون هى أهم عنصر فى الحياة الاقتصادية كلها ، خصوصاً على المستوى العالمى .

والمدير الذى يعرف كيف يدير الشركة الكبرى ، أو مجال العمل الذى يشغله ، لا هو من أصحاب رأس المال ، ولا هو من العمال ، بل ولا هو من المهنيين ، لأنه نوع رابع .

إذن : فقد هدانا التفكير التحليلى إلى أن فكرة الاستقطاب فى ركنين كانت فكرة غير صائبة، وبالتالى يتعرض كل ما توقف عليها للخطأ .

أشياء كهذه قلتها تحليلاً لا عراكاً ، وتوضيحاً وليس من أجل الخصومة .. إننى كنت سأقوم بمثل هذا التحليل والتوضيح حتى ولو لم يكن هناك شخص واحد فى بلدى وقومى يؤيد الماركسية لكى أخاصمه وأعاركه .

• **لكل مفكر مفهوم خاص للنقد الأدبى ينبع من موقفه الفكرى ، وقد طرحت هذا المفهوم فى أكثر من مقال .. فهل يمكن أن تعرضه على القراء فى هذا الحوار؟**

ـ هناك بالطبع فكرة تقول إن النقد الأدبى مسألة ذوقية ، يعنى أساسه الذوق ، فكتبت مطولاً فى أن هذا لا يتفق مع التحليل العقلى للعملية النقدية . وعندئذ بينت كيف أن الإنسان يبدأ بقراءة قصيدة مثلاً ، وتعجبه أو لا تعجبه . وإلى هنا يكون المدار هو الذوق ولكن لم يوجد هناك نقد أدبى بعد .

فإذا تصادف أن وُجِدَ رجل قادر على العملية النقدية ممن قرأوا القصيدة فأعجبوا بها ، سأل نفسه : ترى ماذا فى القصيدة من عناصر أدت إلى هذه الوقفة الذوقية إزاء القصيدة ؟

هنا - مثل هذا الرجل - يبدأ فى تحليل القصيدة إلى عناصر ، باحثاً عن الدواعى أو العوامل التى أنتجت هذه الحالة الذوقية المعينة ، ويكون هذا هو النقد الأدبى .

إذن : فالنقد الأدبى قراءة ثانية للمنتج الأدبى .. فبعد أن كانت القراءة الأولى قد أحدثت استحساناً ذوقيًا ، جاءت القراءة الثانية لتحلل ولتعلل ذلك الاستحسان ، وهى عملية عقلية علمية .

- **لن يتكامل هذا الحوار ، أو يقترب من التكامل ، ما لم أسألك عن الفلسفة التى نريد أن نوسع دائرة المهتمين بها ، بالعمل على تبسيطها ، لتشمل الجمهور العريض من القراء، لا أن تظل مجرد متع عقلية ، وطلاسم لا تشغل إلا القلة أو الصفوة ، كما تشى بعض كتاباتك التى أعلنت فى إحداها منذ سنوات قليلة أنك رأيت ربات الفلسفة فى اليونان القديمة يبكين بالدموع ، حين سمعن بعقد مؤتمر عالمى فى القاهرة عنوانه (الفلسفة ورجل الشارع) .**

ـ «الفلسفة» كلمة مظلومة ، لأنها تتعرض لمن يعرف معناها ، ولمن لا يعرف معناها على حد سواء ؛ فيصيبها ما يصيبها من أذى ومن تشويه عند الفريق الثانى من الناس .

الفلسفة فى حقيقتها وبكل اختصار هى تحليل الحياة الثقافية بكل فروعها التى يعيشها الناس فى عصر معين ، بما فى ذلك العلوم ومناهجها ، والقيم الأخلاقية الشائعة ، والقيم الفنية الشائعة ، والتركيبة الاجتماعية فى الأسرة أو فى الدولة كما هى قائمة ... إلى آخره .

أى أن هنالك حياة عملية يعيشها الناس ، وفيها كل هذه العناصر .

وقد يوجد من المفكرين رجل من طبيعته أن يتقصى الأمور إلى جذورها ليعلم من أين جاءت ، فسيجد مثل هذا الرجل أن هنالك علوماً : علم رياضة ، علم فيزياء ، علم كيمياء، علم نبات ، علم حيوان ، علم نفس ، علم اجتماع ... فكأنما هو يطرح على نفسه سؤالاً ليقول به: هل هذه العلوم المختلفة والمتعددة نبتت من جذور مختلفة أيضاً ، أم أننا لو تعقبناها إلى أصولها الأولى وجدناها جميعاً قد نبعت من جذر واحد ، ثم تفرقت فروعها ؟

من هنا يبدأ هذا الرجل بتحليل العلوم تحليلاً ينظر به إن كانت حقيقةً متفرقة ، ولا تجتمع أبداً

فى أساس واحد ، أم أنها لو ردت إلى أصولها نجدها نابعة من مبدأ واحد . أو بعبارة أخرى : يحاول أن يبحث هل هنالك وحدة تضم هذه العلوم كلها فى جنس واحد ؟ . . وقد يجد ، وقد لا يجد . وإذا وجدها موحدة بصورة من الصور بيَّن لنا كيف توحدت .

مثل هذا النشاط نشاط فلسفى . لماذا هو فلسفى ؟ لأنه هنالك فى كل علم كالفيزياء والنبات.. إلخ ، نقطة يبدأ منها العلم دون أن يسأل عن حقيقتها . علم الحساب مثلاً يبدأ بالأعداد ، ولكنه لا يسأل من أين جاءت الأعداد ، لأن السؤال لا يهمه . الذى يهمه كيف تكون العلاقة بعد ذلك بين هذه الأعداد جمعاً وطرحاً وضرباً إلى آخر هذه العمليات الحسابية .

لكن قد يأتى رجل من بين علماء الرياضة أنفسهم ، ليسأل نفسه : من أين جاءت هذه الأعداد للعقل ليجعلها أساساً للرياضة ؟ فهنا نجده يسير فى اتجاه مضاد للطريق الذى سار فيه عالم الرياضة . فعالم الرياضة يبنى على هذه الأعداد طوابق البناء الرياضى طابقاً بعد طابق. أما فيلسوف الرياضة فيحفر تحت العدد ليرى من أىّ الجذور الأولية تأتَّى للعقل البشرى أن يحصل على هذه السلسلة العددية . . ويجب أن نلاحظ هنا أن معظم فلاسفة العلم هم من رجال العلم أنفسهم ، إلا أنهم حاولوا أن يتقصوا أرضية العلم - التى لا يناقشها العلم نفسه - أن يتقصوها إلى أصولها الأولى .. فهذه هى فلسفة الرياضة : الحفر والوصول إلى الجذور .

• **وبالنسبة للفرد أو الإنسان العادى ؟**

- نحن نعرف أن الإنسان العادى فى الحياة العادية يصف أقوالاً معينة بأنها صادقة ، ويصف أقوالاً أخرى بأنها خاطئة ، هؤلاء أنفسهم لو سألتهم : ما هى موازين الصواب والخطأ ؟ ما هى أداة الحكم بأن هذا القول أصاب ؟ وهذا القول أخطأ ؟ نجد أن لا جواب عندهم، لأنهم يستخدمون هذه الأحكام استخداماً سطحيًا .

فلو وجد الرجل الذى يقلقه مثل هذه الأحكام العامة ، فيتصدى لها لعلة يجد الموازين التى ترتكز عليها عندما نصف حقيقة ما بأنها صحيحة ، وقولاً آخر بأنه قول خطأ ، فيبحث عن هذه الموازين ، فإذا اكتمل له جواب كان هذا ما يسمونه «علم المنطق» .

ثم هنالك من عامة الناس - لا فرق بين عامتهم وخاصتهم فى هذا - من يصفون مسالك الناس بأنها مسالك قويمة ، مقبولة خلقيًا ، كما يصفون مسالك أخرى بأنها مرفوضة .

ولكن لو سألنا هؤلاء الذين يفرقون فى الحياة العملية بين المقبول والمرفوض ، أو بين الفضيلة والرذيلة . . لو سألناهم : ما هو الأساس الذى يجعل الفضيلة فضيلة ، والرذيلة رذيلة؟ لما وجدنا فيهم من يستطيع الإجابة .

ولكن قد يوجد الرجل الذى تقلقه هذه الأحكام العامة ، ويريد أن يجد لها أساساً قامت عليه ، أو مصدراً جاءت منه ، فيبحث .. وإذا وجد الجواب وصاغه وقدمه للناس ، كان هذا ما يسمونه فى الفلسفة «علم الأخلاق» .

وكذلك فى الناس - حتى عامَّتهم - من ينظرون إلى صورة أو إلى فتاة أو إلى الشفق أو إلى البحر ، فيقولون : هذا جميل . لكن لو سألناهم : ما هى العناصر التى توافرت فى الشىء فكان بها جميلاً؟ لما عرفوا الجواب .

ولكن قد يوجد الرجل الذى يقلقه هذا الحكم العام على الأشياء ، كيف يُترك بغير معرفة، معرفة الأساس الذى قامت عليه ؟ فيبحث عن ذلك الأساس ، وإذا وجده صاغه وقدمه للناس، كان هذا ما يسمونه فى الفلسفة «علم الجمال» .

ثم عامة الناس كخاصتهم على حد سواء يعيشون فى هذا العالم ، ولا بد أن يثير فيهم بعض التساؤلات ، كأن يسأل الإنسان نفسه : هل هذا العالم الذى أراه وأعيش فيه هو كل الوجود ، أم أن له ما وراءه مما لست أراه ؟ ثم هل هذه الأنواع المختلفة من الأشياء، من نبات وحيوان وهواء وماء وسماء وقمر وشمس . . . إلخ ، هل هذه الأشياء المتفرقة لها ما يوحدها ، أم أنها متفرقة بحكم طبائعها ، ولا صلة بين بعضها وبعض ؟

هذا النوع من الأسئلة يسأله حتى الطفل أحياناً .. وعامة الناس لا يستطيعون الإجابة . ولكن قد يوجد الرجل الذى يسأل - عن مقدرة تحليلية - السؤال نفسه : هل نحن أمام جسم موحد ، برغم ما يبدو من تنوُّع أجزائه ، أم أنه مختلف بطبيعته ؟ وإذا وجد إجابة صاغها وقدمها للناس ، فكانت هذه هى «فلسفة الوجود» .

من هذه الفروع الأربعة أساساً التى هى : علم المنطق الذى يبين أساس الصواب والخطأ فى الفكر . وعلم الأخلاق الذى يبين أساس التفرقة بين الفضيلة والرذيلة . وعلم الجمال الذى يبين أساس الحكم على بعض الأشياء بالجمال وبعضها بالقبح . وما وراء الطبيعة الذى يحاول أن يرى إلى أى حد هذه الأشياء الكثيرة موحدة أم غير موحدة ؟ .. ولها ما وراءها أم ليس لها وراء ؟ ..

من هذه الفروع الأربعة تتكون الفلسفة . وكما نرى هى كلها فروع تبدأ من الخبرة العادية فى حياة الإنسان . غاية ما هنالك أن الفيلسوف يتقصى هذه الخبرة إلى جذورها التى نبتت منها .

وفى كل عصر من العصور يحاول صاحب الفكر الفلسفى أن يجد المبدأ العام الذى تنطوى فيه جميع الظواهر الحضارية والثقافية وكل ما حوله . وإذا وجد مثل هذا المبدأ يكون قد فسر به عصره من وجهة نظره ، وتكون كتاباته فى ذلك هى فلسفته .

ونعود الآن إلى سؤالنا وهو : هل من حق رجل الشارع - الرجل العادى - أن يشارك بالفلسفة ؟ والإجابة أصبحت واضحة مما أسلفناه ، فرجل الشارع من حقه أن تكون له أحكامه على الأشياء بالصواب أو الخطأ ، بالجمال أو القبح ، بالفضيلة أو الرذيلة ، بالتوحُّد أو بالتجزُّء . ولكن تعوزه القدرة على رد أحكامه هذه إلى المصادر التى جاءت منها ، أو الجذور التى تفرعت عنها . وهذه العملية الأخيرة هى - على وجه التحديد - ما يضطلع به الفيلسوف .

- **بقدر عمر الرحلة الفكرية الطويلة للدكتور زكى نجيب محمود ، الحافلة بالعطاء منذ أكثر من ستين سنة ، شارك خلالها ، بكتبه ومقالاته ومحاضراته ، فى تكوين وإلهام أجيال عديدة من المثقفين ، فى مصر وأنحاء الوطن العربى ، قامت بدورها فى الجامعة وفى الحياة الثقافية بأداء الرسالة المكملة لرسالة هذا الأستاذ الكبير ، سواء أولئك الذين اختطوا مسارات أخرى ، تؤكد فى النهاية أن الاختلاف والتعديل والإضافة فى الرأى والموقف يعد أحد وجوه الخصوبة ، بل وأغنى نقاط اللقاء مع الآخرين .**

الحوار الرابع (*)

بفضل هذا الدور المتعدد الأبعاد ، لا يستطيع مؤرخ للفكر العربى المعاصر أن يتجاهل ما قام به الدكتور زكى نجيب محمود فى خدمة الثقافة العربية ، أو يقلل من نضج الفكر الذى طرحه فى مؤلفاته ، أو من عمق المعالجة التى عالج بها قضايانا المختلفة ، وفى مقدمتها قضية الأصالة والمعاصرة .

وقد كان آخر اهتمام علمى ناله هذا المفكر الكبير ، خارج بلاده ، رسالة علمية للباحثة «نجوى حمادة» ، حصلت بها على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة السوربون ، موضوعها «الاغتراب الثقافى عند الدكتور زكى نجيب محمود» . كما صدر عنه فى بيروت عن دار الفارابى، فى نفس الوقت ، كتاب «الوضعية المنطقية والتراث العربى» للباحث عبد الباسط سيدا .

- **وفى هذا الحوار المركز مع الدكتور زكى نجيب محمود ، نتعرف على قضية القضايا فى حياته الفكرية ، وهى كيف نكون أبناء لعصرنا ، فى غير تعارض مع ميراثنا القديم ؟! أو كيف نجمع بين الأصالة التى تمثل شخصيتنا المستقلة وجوهر ذاتيتنا ، وبين الانتماء للعصر الذى لا معدى عنه ، حتى لا نغترب أو نتخلف عن الزمن الذى نعيش فيه ؟ !**

وللإجابة عن هذا السؤال البسيط والجوهرى ، اجتاب الدكتور زكى نجيب محمود الثقافات والحضارات المختلفة عبر تاريخها الطويل ، وكتب آلاف الصفحات ، متنقلاً بين ما هو جزئى ومحسوس ، فى الظواهر والأفكار ، إلى ما هو كُلِّىّ ومجرَّد ، ومن المفرد إلى العام . . كما خاض كثيراً من المعارك من أجل الدفاع عن وجهة نظره ، وعما آمن به من قيم ضد السلفية من جهة ، وضد الاغتراب وفقد الهوية من جهة أخرى ، وضد الخلط بين الفكر العلمى والإبداع الأدبى من جهة ثالثة ، أو بين الحياة العقلية والحياة الوجدانية . . ذلك أن لكل من هذه الثنائيات منهجه الملائم فى التعبير الذى يختلف به عن الآخر ، وإن اتحدا فى الغاية .

وتشكل هذه المعارك ، كما يشكل إنتاج د. زكى نجيب محمود ، على تنوع آفاقه ، جزءاً مهمًّا

(*) نشر فى مجلة «المنتدى» - دبى .

من تاريخنا الثقافى ، يتجسد فى أحد تياراته أو مناهجه الأساسية التى تمثلها فلسفة هذا المفكر ، وأعنى بها الوضعية المنطقية ، بما لها وما عليها .

وهذا هو نص الحوار مع د. زكى نجيب محمود ، الذى أجريته معه فى بيته المطل على النيل بالجيزة ، وحال دون إطالته بالقدر الكافى ظروفه الصحية .

• **كمفكر موسوعى الثقافة ، اطَّلع على أحلام الفلاسفة ، وجال فى مدنهم الفاضلة : علام تنهض المدينة الفاضلة العصرية كما تتصورها ، إن أردنا أن نقيمها فى هذا الزمن ؟**

ـ أعتقد أن أساساً أوليًّا يأتى قبل العقل والحرية من الناحية المنطقية الصِّرفة هو نفسه الأساس الذى اختاره أفلاطون ليستبق به بناء «الجمهورية» أى : بناء الدولة التى أراد أن يفكر فى رسم خطتها ، وهو أساس «العدالة» .

فنحن نعلم أنه فى محاوراته «الجمهورية» قد خصص الفصول الأربعة الأولى ، من مجموع الفصول الذى هو عشرة ، لتحليل فكرة العدالة التى أحس بأنها يجب أن تكون القاعدة الأولى التى يقام عليها بناء الدولة المُثلى . وكل ما فى الأمر هو أن نحدد معنى العدالة ، لأن مثل هذا التحديد هو من أعسر ما يكون . وقد طُرحت فى المحاورة عدة اقتراحات لمثل هذا التحديد لمعنى العدالة فى هذه الحالة . وقد وصل أفلاطون ومحاوره إلى نتيجة رضى عنها الجميع ، وكان ذلك قبل أن ينتقل بالحديث إلى أركان الدولة التى أراد بناءها .

• **إلى أى مدى ترى أن فكرة أفلاطون عن العدالة قد أحاطت بكل مقوماتها ؟**

ـ الفكرة التى انتهى إليها أفلاطون عن معنى العدالة ، فى هذه الحالة ، هى أن العدالة ليست شيئاً قائماً بذاته ، وإنما هى محصلة ثلاث صفات يجب أن تتوافر فينتج عن توافرها عدالة اجتماعية ، والصفات الثلاث هى :

* أن تسود فى الطبقة العاملة المنتجة فضيلة العفة .
* وأن تسود فى الجانب العسكرى من الدولة صفة الشجاعة .
* وأن تسود فيمن يتولون الحكم صفة الحكمة .

فإذا توافرت هذه الصفات الثلاث نشأت الحالة التى توصف بأنها عدالة اجتماعية .

وتسألنى الرأى فيما نراعيه فى دولة عصرية مُثلى فأقول شيئاً قريباً جدًّا من هذا الذى سبق إليه أفلاطون ، وأعنى : التركيز على العدالة الاجتماعية . وربما اختلفنا بعض الشىء فى عناصرها عن العناصر التى أوردها أفلاطون .

• **ما هى فى تقديرك العوائق التى تعترض نهضتنا الحضارية ؟**

- يبدو لى أن هناك عائقين أساسيين يقيدان سيرنا على طريق التقدم كما هو مفهوم فى حياة هذا العصر : العائق الأول هو موقفنا من الماضى ، إذ يخيل إلينا أن ولاءنا لماضينا يقتضى بالضرورة أن أصبَّ حياتى اليوم فى القوالب نفسها التى صُبَّت فيها حياة الأجداد . وذلك خطأ لأن فيه إهداراً للزمن ؛ فبيننا وبين الماضى عشرات القرون ، وهى فترة لم تكن فراغاً من الحوادث ، وإنما هى تاريخ تعاقبت فيه الدول ، وتقدمت فيه العلوم ، وازدادت المعرفة بصفة عامة .

ولذلك فنحن نرى أن الولاء للماضى أمر لابد منه لكى نشعر بأننا لسنا لقطاء فى التاريخ، وإنما نحن ننتمى إلى أصول يفخر بها أى إنسان . لكننا يجب أن ندقق النظر فى معنى ذلك الولاء: ماذا يكون ؟ هل يكون بأن نجعل من أنفسنا نسخة كربونية من حياة السلف ؟

الذى نراه هو أن ذلك الولاء يتحقق فى أحسن صورة ممكنة بأن أُبدع كما كانوا يبدعون.

فإذا كان أسلافنا قد أثبتوا جدارتهم بأن أبدعوا فى إقامة الحضارة البشرية إبداعاً تفرَّدوا به ، فليكن ذلك هو نفسه ما نصنعه نحن اليوم ، وهو أن نشارك فى بناء حضارة عصرنا مشاركة تقوم على مُبدَعات تخلقها قرائحنا خلقاً جديداً لكى تضاف إلى مُبدَعات أهل عصرنا من أبناء الشعوب الأخرى .

• **هذا كله عن العائق الأول الذى يتمثل فى سيطرة الماضى بقبضة قوية . فماذا عن العائق الثانى الذى يعوق النهضة ؟**

- العائق الثانى الذى يحول دون سيرنا على طريق النهضة والتقدم ، هو موقفنا الثقافى بصفة عامة ، وهو موقف يكاد يكون موقفاً رافضاً للعلم .

ولا أقصد بذلك أننا نرفض قبول العلم الذى ينتجه أبناء الغرب ، ونرفض ما يُبنى على ذلك العلم من تقنيات لابد منها فى الحياة العصرية .. كلَّا ، بل الذى نقصد إليه بالرفض هنا هو أننا لا نعمل على المشاركة فى أن تكون نظرتنا إلى الحياة نظرة علمية ، فضلاً عن أن نشارك مشاركة إيجابية فى إنتاج نتاجات علمية نعطيها للعالم كما نأخذ منه .

الحوار الخامس (*)

تزدهر الحركة الثقافية بالإبداع الأدبى والفكر الفلسفى . وإذا كان الإبداع الأدبى لا يكتسب قيمته الحقيقية إلا بما فيه من فكر ، فإن الفكر الفلسفى بدوره لا يحقق غاياته فى الاتصال بالمتلقين إلا إذا اتسم بروح أدبية ، نجدها دائماً مشعة فى كتابات الفلاسفة منذ أفلاطون .

يُعَدُّ الدكتور زكى نجيب محمود خير نموذج للمفكر الذى أمسك بالقلم لأكثر من ستين سنة متصلة ، ولا تخلو صفحة واحدة من آلاف الصفحات التى كتبها - فى مجال الفكر والفلسفة ومناهج العلم - من اللمسة الذاتية المتفردة للأديب الفنان ، الذى يمتلك فكره الفلسفى ومنهجه العلمى الذى ينهض فى مجموعه على النقد ، مع تفريقه الدائم بين لغة العلم بما فيها العلوم الإنسانية، ولغة الأدب والوجدان .

وإلى جانب هاتين الصفتين لكتاباته الفلسفية ذات الطابع الأدبى ، يجمع الدكتور زكى نجيب محمود بين صفة الأستاذ الجامعى الذى يخاطب دائرة ضيقة من الطلبة ، وصفة الكاتب الذى يخاطب الجماهير العريضة عن طريق الصحف والمجلات .

ورغم ما فى أفكار وكتابات الدكتور زكى نجيب من ثراء فكرى وثقافى ، فإنها لاتمثل الثقافة الوطنية الملتزمة ؛ فهى لا تقصر اهتمامها على الصورة الجزئية الساكنة ، دون المضمون والدلالة الاجتماعية الحية الشاملة ، ولا تنظر للظواهر كعلاقات ثنائية منفصلة لا تشير إلى شىء خارجها ، ولا تنظر إلى الإبداع ككائن مقصود لذاته ، وإنما تنظر للظواهر والإبداع كصيغ جدلية مركبة ، مرتبطة بالواقع .

الوضعية المنطقية :

الخلاف الذى أثاره الدكتور زكى نجيب محمود حول فلسفة الوضعية المنطقية التى تبناها ودافع عنها بلا كلل ، يوضح موقفه كمفكر مثالى ، لا يتجاوز - فى تناوله للأعمال الفنية -

(*) نشر فى مجلة «الأنوار» - بيروت .

بناءها الشكلى الداخلى ، كما لا يتجاوز - فى تناول التجارب الحسية - خصوصية المشاهد لها .. مناهضاً المدارس المادية التى تنظر للإنتاج الفكرى والأدبى فى ضوء الظروف والقوى الاجتماعية المتصارعة فى أبعادها التاريخية .

ولكن مثل هذا الخلاف لا يؤثر فى أننا مع الدكتور زكى نجيب محمود أمام مفكر كبير، يدعو لتجديد الفكر العربى باختيار أفضل ما فى التراث من أصالة ، وأفضل ما فى العلم المعاصر من حداثة .

ولعل أبرز خصائصه إخلاصه لفكره ، وهذا ليس بالقليل فى زمن بلا عمق ثقافى ، تتخفى فيه الأمية وراء قشور المعرفة ، ويتلوَّن فيه الكتَّاب حسب الأحوال .

• فى بداية هذا الحوار ، هل يمكن أن يتعرف القراء على بعض ملامحك الشخصية التى لا يعرفها الكثير من القراء ؟

ـ أنا بحمد الله رجل حاجاته المادية من الحياة قليلة للغاية ، أصبحت كما يقول المثل الشعبى فى الريف المصرى «مثل اللبن الرائب» الذى لا يمكن أن يعود إلى حالته الأولى لبناً حليباً .

وبهذا الوضع ، أو هذه البقية المتبقية ، أعيش فى مكتبتى وبين كتبى فى شبه عزلة عن الناس ، لا يزورنى أو يتردد علىَّ إلا الأوفياء من تلاميذى ، وعددهم قليل جدًّا . لم يدخل بيتى صحفى واحد منذ خمس سنين . لا أرد على رنين التليفون . وفى وحدتى هذه أواصل التفكير والكتابة.

حياة الأدباء :

• كيف تنظر إلى حياة الكتَّاب والأدباء والنقاد فى عالمنا العربى ؟

ـ لست أجد غرابة فى أن يعيش الكتَّاب والأدباء والنقاد على هامش الحياة الاجتماعية والسياسية للشعب ، لأنهم لا يؤثرون فى أحد ، بعكس بعض الفنانين الذين استطاعوا أن يكون لهم وجودهم الملحوظ والفعَّال بين فئات الشعب .

نحن الكتَّاب نوشوش بعضنا البعض ، ونهمس بيننا وبين أنفسنا بصوت خافت ، بعيداً عن صخب الواقع . وقد لا يقرأ بعضنا البعض الآخر . وتأثيرنا كلنا ككتَّاب ومثقفين لا يتجاوز -كما قلت فى إحدى مقالاتى- تأثير بقعة زيت فى محيط كبير .

قارنْ بين ما يحصل عليه مجموع الكتَّاب فى فترات طويلة ، بما يحصل عليه فنان واحد فى فيلم أو مسرحية أو مسلسل تليفزيونى ، أو ما تحصل عليه فنانة ، أو بين دخل مجموع الكتَّاب وبين دخل مستثمر واحد فى صفقة واحدة تنجز فى دقائق وهو جالس فى مكانه .

كيان بشرى :

- **كمفكر عاش وبسط صحائف الأسفار وواجه تجارب شتى : ماذا جنيت من الكتب ومن الحياة ؟**

- إن الذى جنيته من الكتب مرة ومن الحياة العملية مرة أخرى هو هذا الكيان البشرى الذى يحدثك الآن ، فهذا المتحدث إنما يحتوى بكل ما فيه على مجموعة الأفكار ومن طرق السلوك فى المواقف المختلفة ، جاءت كلها إما من الكتب التى درسها وقرأها مع ملاحظة مهمة أعتقد أنها تفوت على كثيرين ، وهى أن الكتب نفسها إنما هى سجل لحياة عظماء عاشوا ما عاشوه من خبرات وتجارب رصدوها وعرضوها فى الكتب .

ومعنى ذلك بعبارة واضحة هو أن ما جنيته من حياتى إنما جاءنى على مستويين : فالمستوى الأعلى هو الذى جنيته من حياة العظماء وأفكارهم كما عرضوها فى كتبهم . والمستوى الأدنى هو ما حصَّلته بنفسى من مواقف الحياة العملية .

وإننى إذْ أشير إلى هذه التفرقة أقول إن الكثرة الغالبة منا تنظر إلى الكتب وكأنها جثث الموتى ، ولا تنظر إليها وكأنها أشخاص أحياء يتحدثون إليك .

لقد سألنى زائر ذات يوم : كيف تحتمل العزلة التى تفرضها على نفسك فى حياتك الخاصة؟ فقلت له : أنا لست معتزلاً ، وإنما أحيا مع صحبة مختارة . أتدرى من هم ؟ فقال : لا . فأشرت له إلى الكتب فى المكتبة قائلاً :

هؤلاء - الذين تراهم على رفوف المكتبة - هم ناس ، كأى إنسان آخر ، لولا أنهم يتميزون بالعبقرية والخلود .

وأريد أن أقول بهذا الذى ذكرته أن ما جنيته من الكتب ، وما جنيته من مواقف الحياة العملية مباشرة ، إنما هو فى نهاية الأمر مجموعة من العناصر التى تلاحمت معاً فكوَّنت رؤية واحدة ذات طابع متميز ، هى الرؤية التى أنظر بها الى الحياة والعالم .

الوضع العربى :

- **كداعية إلى فلسفة علمية تحدد المعنى وتكشف الحقيقة : ما هى ملاحظاتك على وضعنا الراهن إزاء العلم ؟**

- إننا بموقفنا الحالى تجاه «العلم» والنظرة العلمية .. وهو موقف نكتفى فيه بأن نشترى من الغرب علومه .. إما فى هيئة كتب تحتوى على تلك العلوم لتدريسها فى معاهدنا وجامعاتنا .. وإما أن نشترى ما يتولد عن تلك العلوم من أجهزة وآلات .

فمثل هذا الموقف يحرمنا حرماناً تامًّا من الحرية بمعناها الصحيح ؛ لأن تحررنا من المستعمر فى مجال السياسة لم يمنع سيادة ذلك المستعمر نفسه بعد ذلك ؛ بكونه هو وحده الذى يملك العلم ويملك تقنياته ؛ فيكون بمثابة من يسيطر على شرايين الحياة : يفتحها لنا إذا أراد ، ويقفلها عنا إذا أراد .

فماذا تكون العبودية له أكثر من هذه الوقفة التى نقف بها عند بابه ، نطلب الصدقة - علوماً وأجهزة وآلات - ، وله هو كل الحرية فى أن يعطى أو يمنع ؟

وجدير بالذكر هنا أن الحرية التى ننشدها جميعاً من حيث نحن بشر من البشر إنما هى فى حقيقة الأمر (حرية من يَعْلمون) ، وليست حرية من يجهلون . فليس العلم إلا وسائل مختلفة لقهر الطبيعة قهراً يمكِّننا من استخدام ظواهرها لصالح الإنسان ، من كهرباء ، وذرَّة ، ومعرفة بتكوين الكائن الحى ... وهكذا .